إشكاليات تجنيس الموروث السردي العربي
- نص "حكاية عمر النعمان" في الليالي أنموذجا-

THE LITERARY GENRE PROBLEMATICS OF THE NARRATIVE HERITAGE
THE ARABIAN NIGHTS' "THE TALE OF OMAR AL-NU'MAN" EXAMPLE

أحمد زعزاع

جامعة البليدة2

البريد الالكتروني: a.zazaa@univ-blida2.dz

تاريخ الإرسال: 2019/08/14 تاريخ القبول:2019/11/18 تاريخ النشر: 2019/12/12

ملخص:

سنحاول في مقالنا التعرض إلى الإشكالية التي يطرحها تجنيس نص "حكاية عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان"، وهو أحد نصوص ألف ليلة وليلة الذي صنع له تميزا واضحا ضمن المتن الألفليلي العام، هذا المتن الذي تأسس خارج الثقافة الرسمية، وفق معطيات بانية تختلف في مجملها عن المتعارف عليه. وقد عمدنا إلى تطبيق مقاربتي باختين ولوكاتش التجنيسية للملحمة والرواية، والتاريخية منها بالخصوص، في محاولة للوقوف على أوجه التوافق أو الاختلاف التي يتشكل على ضوئها بعض ما سنصل إليه في بحثنا المرتبط بمقاربة النوع الأدبي الذي ينضوي تحته نص "حكاية عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان".

الكلمات المفتاحية: السرد; التراث; الليالي;الملحمة; الأجناس; باختين; لوكاتش.

ABSTRACT :

Our attempt in this article will be based on the genre problematic of the text of "The tale of Omar Al-Nu'man and his Sons Sharrkan and Daw Al-makan", one of the "Arabian Nights" special texts, which was founded outside the official culture, according to structural data that differ in its entirety from the conventional ones. This study applied Bakhtin and Lukasz's approaches to the epic and the novel, especially the historical ones. It was an attempt to discover the differences or similarities that shape some of what we will reach in our research that is related to approaching the literary genre of "The Tale of Omar al-Nu'man and his sons Sharrkan and Daw Al-makan"

Keywords: Narration, heritage, The Arabian Nights, epic, genres, Bakhtin, Lukasz.

تمهيد:

صنع نص "حكاية عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان" تميزا خاصا داخل متن ألف ليلة وليلة، من خلال طوله الواضح والنفس السردي القصصي المتجلي فيه، وكذا طبيعة الأحداث التي يبني عليها مادته بملامسته لجوانب من التاريخ، مثل إشارته للصراع الإسلامي المسيحي، بالإضافة إلى تعرّضه لشخصيات معينة يتتبّعها بصورة تشبه التأريخ لسلالة بعينها.

والسمات السابقة تجعلنا نطرح إشكالية انتماء هذا النص مسائلين حدود تجنيسه الأدبي، وذلك انطلاقا من عملية رصد وتتبع مجموعة من العناصر المستندة التي وقف عندها الباحثان ميخائيل باختين وجورج لوكاتش في سياق خوضهما في مسألة تجنيس الملحمة والرواية، والرواية التاريخية خصوصا عند لوكاتش.

1. في أوليات التجنيس عند باختين ولوكاتش:

ظلت مقولة الجنس الأدبي حاضرة على امتداد النظرية الأدبية عند الغرب، ومن هذه المقاربات برزت بشكل واضح قراءات كل من باختين ولوكاتش[1]؛ ولكون نص حكاية عمر النعمان يتميز ببنية سردية هائلة

تستثمر في بعض أبعادها التاريخ، نجدنا نسائل جنسه الأدبي مقارنة بالملحمة والرواية، والرواية التاريخية بوجه خاص، معتمدين بالأساس مقاربتي الباحثين السابقين. فباختين في معرض تفريقه بين الرواية والملحمة يعرض لهذه الأخيرة بكونها تمثل نوعا أدبيا مكتملا، يختزن في بنيته الداخلية عوامل وجوده- التي هي في الوقت نفسه عوامل فنائه- التي أصبحت بمثابة قواعد قارة يتجلى من خلالها الطابع المميز للأعمال الأدبية الموسومة باسم الملحمة، انطلاقا من اعتماد الماضي البطولي المكتمل والمنغلق على ذاته- بما يحمل من أسطورة قومية- موضوعا لها، جاعلة ذلك كله في بعد تغريبي ينأى عن المساءلة بواسطة الزمن الملحمي والمسافة الملحمية التي تجعل الملحمة تظهر في كلية تامة غير قابلة للنقد أو التجريب، واقعة في حدود اللاتماس مع الزمن الحاضر[2].

وتتخلّق الرواية- في المقابل- على عكس الملحمة جنسا غير مكتمل لم تتحدد خصائصه المميزة النهائية، وفي هذا يكمن الجوهر النوعي للرواية باعتبارها جنسا نقديا لا يستقر على حال، ينفي ذاته في كل مرة، كما لا يتوانى عن نفي الخصائص العامة لغيره من الأنواع الأدبية، الأمر الذي جعلها تخلق لنفسها بعض السمات المميزة والمرتبطة أساسا بالجانب الأسلوبي كظاهرة التعدد الصوتي المتعلقة بالوعي بتعدد اللغات، حيث تظهر الأصوات المختلفة بما يجعل كل خطاب يعبّر عن انتماء طبقي أو ايديولوجي أو لهجي معين، بما يبرزه من سمات لغوية حاملة لملامح ذلك الانتماء. بالإضافة إلى أنه في الرواية، حسب باختين، يتحقق التحويل الجذري للترابطات الزمنية في الصور الأدبية، والذي تجسده بشكل رئيسي طريقة عرض الأحداث وبناء الشخصيات، بما يجعلها في تماس بالحاضر المعاصر من حيث إنه لم يكتمل بعد[3].

ويعتمد لوكاتش في ما تعلق بالرواية مطارحة تاريخية اجتماعية تجعل منها الجنس الأدبي المرتبط بالمجتمع البرجوازي، على حد قول هيغل بأن الرواية ملحمة برجوازية[4]. وباعتبار الرواية التاريخية نوعا منطويا تحت الجنس الروائي العام، فهي لا تشذ عن كونها رصدا لحركية المجتمع التاريخية، ويظهر تميزها من خلال اعتمادها التاريخ مادة تخييلية، واستغلاله استغلالا لا يحاول إعادة صياغة الأحداث من أجل التأريخ لوقائع معينة، بقدر ما يسعى إلى خلق وعي بأهمية التاريخ في كونه الحامل والمحقق للتقدم الإنساني، حيث يقول لوكاتش: "أهم شيء هنا هو المعرفة التاريخية المتزايدة بالدور الحاسم الذي يلعبه في التقدم البشري صراع الطبقات في التاريخ. وتركز الروح الجديدة في الكتابات التاريخية على هذه المسألة بالضبط: على البرهنة تاريخيا كيف أن المجتمع البرجوازي الحديث نشأ عن الصراعات الطبقية"[5]. فلوكاتش يربط بنية الرواية، والتاريخية منها خاصة، ببنية الصراع التي تنعكس في أشكال التعبير المختلفة التي يستحضرها الروائي لحظة تأثيث علمه السردي، من خلال تقديم صورة الإنسان المختلفة في مجتمع برجوازي مختلف

محرك الوجود فيه هو الصراع الذي يجد الأفراد أنفسهم فيه، وهو ما ينتقل إلى الرواية تجسيدا سرديا يجعل الشخصيات دالة على تناقضات المجتمع.

وبهذا نجدنا نعود إلى نص "حكاية عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان" في ألف ليلة وليلة نبحث عن الملامح النوعية المميزة له، والتي تقترب أو تنأى به عن جنسي الملحمة والرواية، ولا يعني هذا أننا سنحاول إخضاع النص للمقاربة الملحمية أو الروائية وإجباره على الاستجابة لها، بتحميله ما لا يحتمل بغية البرهنة على الوجود النوعي، وإنما سننطلق في دراستنا من محاولة العثور على الملامح النوعية، والوقوف عليها إن وجدت.

2. بنية الشخصيات وملامح الانسجام:

تعدّ الشخصيات ذات أهمية كبيرة في أي عمل أدبي، من حيث دورها الفاعل في بناء الأحداث أو تطوير سيرورتها؛ كما هو ملاحظ في نص حكاية عمر النعمان، إذ نجد الحدث في أحد تشكلاته الرئيسية يتمحور حول سلالة الملك عمر النعمان يحاول تتبعها فيما يشبه التأريخ للتمفصلات الأساسية في حياة أفرادها، والتي لا تكاد تنفصل عن المكون القومي العام لارتباط شخصياتها بحكم العالم الإسلامي.

أول من يصادفنا من هذه السلالة الملكية الحاضرة بقوة في النص ابتداء من العنوان الملك عمر النعمان الذي يصوّر في هيئة شبه أسطورية، فهو من "الجبابرة الكبار، وقد قهر الملوك والأكاسرة والقياصرة وكان لا يصطلى له بنار ولا يجاريه أحد في المضمار وإذا غضب يخرج من منخاريه لهيب النار"[6]، أما ابنه شركان فيضاهيه في حدود ذلك الوصف، انطلاقا من كونه "آفة من آفات الزمان، قهر الشجعان وأباد الأقران.. وأطاع له جميع العباد لما له من شدة البأس والعناد"[7]، فهما بذلك يصوّران في هيئة كاملة من القوة تجعلهما يظهران في صورة البطل المثالي مكتمل الصفات، والذي يظهر في النص مباشرة دون مقدّمات تشير إلى نشأته أو كيفية تلقيه لتلك القدرات البطولية، ما يجعل التشخيص الذي ظهرا به أقرب إلى التشخيص الملحمي على حد قول لوكاتش: "فنظرا إلى أن الملحمة تتعامل مع بطل ترعرع وكبر بكامل سيكولوجيته، بلا مشكلات في وسط المجتمع الذي يحي بين ظهرانيه، لا يكون التشخيص الملحمي بحاجة إلى أي نوع من التعليل التكويني أو الوراثي، ومن ثمة يسعه أن يجعل نقطة انطلاقه النقطة التي يرى أنها الأنسب لمجرى الأحداث الملحمية"[8].

ويتعدى غياب الإشارات الزمنية المرتبطة بظهور الشخصيات الملحمية إلى غياب تأثير الزمن عليها، فشخصية الوزير دندان تظهر من خلال النص بمعزل عن حركة الزمن وتأثيره، كيف لا وهو يرافق ثلاثة أجيال كاملة من سلالة عمر النعمان دون أن يسري إليه أي وهن أو يطرأ عليه أي تغيير، فقد بقي متصفا بالصفات نفسها من الحكمة الفائقة والقدرة العالية على القتال، فهو يجيّش الجيوش مع "كان ما كان"،

مثلما كان يخرج في مقدم جيش شركان[9]، ومن ثمة فهو أشبه بالبطل الملحمي الذي يظهر على مستوى بطولي عال يقدّم لنا بكامله ونجده كذلك منذ البداية وحتى النهاية.

وسيادة الفكرة القومية من جهة والتبجيل الذي يحظى به الأبطال من جهة أخرى، يجعلان الصوت الوحيد الحاضر هو الصوت القومي الذي يخدم الايديولوجية العامة لهذه النصوص، والمنسجمة مع رؤية مركزية تقوم على فكرة أسطرة الأنا وجعلها في منأى عن النقد، فالنزعة الملحمية تستند في حضورها النصي من البعد التغريبي الذي يحول دون مساءلة الأحداث المعروضة خاصة ما تعلق منها بأفعال الأبطال، "وذلك لاتصالها بالأسطورة القومية الملتحمة عضويا باللغة، ما يعطي كلية الإحساس الأسطوري والسحري باللغة والكلام"، على حسب تعبير باختين[10]. فتظهر- تبعا لذلك- أغلب شخصيات النص منسجمة مع العالم الذي تتفاعل معه، غير عاجزة عن فهمه أو مواجهة مشاكله مهما كانت، فهذا شركان يدخل دير الأعداء ويجتمع عليه مئة منهم لكنه يخرج من بينهم دون أن يصاب بأذى بعد أن قتل ثمانين منهم عشرة عشرة، ويظهر هذا الانسجام في مواقف أخرى تتعلق بغياب الحواجز اللغوية مثلا؛ إذ بالرغم من أن الشخصيات تنتمي إلى عوالم مختلفة إلا أن حدود التواصل بينها موجودة. وقد يتعدى ذلك الانسجام الجانب البشري إلى تدخل قوى غيبية تسند الأبطال، كحضور العناية الإلهية في النص، ما جعل بعض أفعال الأبطال تبتعد عن الحدود الواقعية لتلامس الجانب الخوارقي، وتظهر وكأنها متقبلة في هذه النصوص. وتستجيب الشخصيات السابقة تماما لطبيعة عرض الشخصية الملحمية كما حددها باختين، من كون البطل الملحمي "إنسان الماضي المطلق.. على مستوى بطولي عال.. يقدّم لنا بكامله ونجده هكذا وهو موجود هنا منذ البداية وحتى النهاية، ويتناسب مع ذاته ويفقد باطنيته تماما، ولا يوجد فرق بين كيانه الحقيقي ومظهره الخارجي، وتتحقق كل طاقاته وإمكانياته بشكل كامل في وضعه الاجتماعي المرئي وفي قدره كله، وحتى في مظهره الخارجي"[11].

ولتبلغ هذه الشخصيات كمالها التام كان لابد لها من أعداء يضاهونها في الوصف، لذا نجد الشخصيات المعادية لعمر النعمان وأبنائه من الشخصيات الحاكمة في عالمها، فأفريدون هو ملك القسطنطينية، وحردوب حاكم الروم في قيسارية، بينما لوقا فارس الروم الأعظم. ومثلها مثل الشخصيات البطلة السابقة تبرز هذه الشخصيات دون سابق إشارة إلى طرق تكوّنها، مظهرة قدرات بطولية كبيرة هي الأخرى.. أفريدون بكونه "فارسا عظيما لأنه كان يقاتل بأنواع القتال ويرمي بالحجارة والنبال، ويضرب بالعمود الحديد ولا يخشى من البأس الشديد"[12]، إلا أن ذلك التصوير لا يتعدى في أغلبه القوة الجسمانية للأعداء، أو قدراتهم على المكر والخديعة، حتى إذا انتقلنا إلى ذواتهم وجدنا وصفها مغرقا في التشويه، كتغييب الأسماء أو اختيار أسماء هي أقرب إلى الشتيمة أو الإشارة إليها بنعوت سلبية في ما تعلق بالجانب الأخلاقي، حيث إن "الرواي العربي حريص على اختيار أسماء معبرة توحي للسامع ببشاعة العدو الذي يحقره"[13]، كشخصية "شواهي ذات الدواهي" التي توصف بأنها "كانت تلك اللعينة كاهنة من الكهان.. عاهرة ماكرة، فاجرة غدارة.."[14]، وكل هذا التصوير بما يخدم الأنا التي تقدّم دائما على النقيض بكل صور الإيجابية.

وإذا كان الوصف السابق للشخصيات القومية البطلة قد جعلها تظهر على صورة من المثالية المطلقة، نجد شخصيات أخرى في نص حكاية عمر النعمان تبدو في بعض مراحل ظهورها النصي أقرب إلى الشكل الإنساني العادي في ملامحها العامة، كشخصية "ضوء المكان" التي لا تفاجئنا بدخولها على مسرح الأحداث، إذ يصفه الراوي منذ لحظة ميلاده، ثم يتتبعه في نشأته التي اكتسب فيها الصفات البطولية، الجامعة بين الجانب المادي بإتقانه أمور الحكم والحرب والقتال، والمعنوي بتعلمه الحكمة وحضور الجانب الديني. وبالرغم مما تظهره أحيانا من أفعال بطولية "وصار ضوء المكان يضرب الرجال ويجندل الأبطال ويرمي رؤوسهم خمسة خمسة"[15]، فإن هذه الشخصية تقع في هفوات بسيطة تنتقص من قيمة تلك الأفعال البطولية، مثل انخداعه بحيلة "شواهي".

3. بناء الحدث وبنية الصراع.

1.3 الوحدة الموضوعية والمحمول التاريخي:

إن الإشارات السابقة المتعلقة بعنصر الشخصيات تجعل نص حكاية عمر النعمان يتشكل في وحدة موضوعية مستمدة أساسا من تتبّع سلالة عمر النعمان والتأريخ لها أثناء بحث أفرادها عن الاستقرار، الذي أخذ تجليات مختلفة، كاسترجاع الحقوق وإثبات الذات وخوض المعارك والثأر من الأعداء. هذه الوحدة الموضوعية التي جعلت بعض الباحثين يصنفون هذه الحكاية ابتداء كملحمة، إذ يظهر حسبهم: "النص ملحمة متكاملة الأجزاء تبدأ بعملية استدراج للقوات خارج الحدود الإقليمية للإمبراطورية، ثم تمر بطور من المبارزات الفردية أو شبه الفردية، ثم تتحول إلى حرب جماعية"[16] . ورغم ما يبدو عليه النص من وحدة إلا أنه تتخلّله بعض المواضيع التي تبدو دخيلة على النسق الحكائي العام الذي جاء فيه، كقصة عزيز وعزيزة أو تلك الوقفات المرتبطة باختبارات ثقافة الجواري أو حكمة "نزهة الزمان"، إلا أن ذلك لم يرق إلى أن يصنع تنوعا موضوعيا مثلما نجده في الرواية، التي تتوزع موضوعاتها على رصد الأحداث المتعلقة بجميع الشخصيات والتداخل بين هذه المواضيع.

ويبرز شكل آخر من أشكال وحدة الموضوع من خلال التركيز على فئة مجتمعية واحدة في النص، هي الطبقة الحاكمة بالأساس، فالتعدد الصوتي يقترن، حسب باختين، "بتفكيك مركزية العالم الإيديولوجي لفظا.. فإذا كان هناك مجتمع مغلق على نفسه أو طائفة أو طبقة لها نواتها الداخلية الوحيدة والصلبة فإن عليها أن تتافتت وأن تتخلى عن توازنها الداخلي وعن اكتفائها بذاتها لتصبح مجالا منتجا اجتماعيا"[17]، وهذا ما كان غائبا في النص، حيث لا تتجلى في المجمل أي ثورة على الفردية الصوتية، من خلال غياب كلي لأي تمظهر لغوي مجسد لشكل طبقي مثلا، كون نص حكاية عمر النعمان يسيطر عليه بشكل عام حضور طبقي وحيد، مرتبط بالشخصيات الحاكمة بالأساس، وحتى ما ذُكر من فئات اجتماعية كالخدم أو العامة لم يذكر في سياق الحكي الرئيسي وإنما وردت في ثنايا النص بعيدة عن التشكّلات الجوهرية له.

وإذا كان تتبع سلالة عمر النعمان يمثّل المظهر الأول المشكل لوحدة الموضوع، فإن الصراع القومي بين المسلمين والمسيحيين يجعل من النص أكثر وحدة موضوعية خاصة بعد مقتل عمر النعمان، بما يجعله كله

فيما تبقّى ينبني حول هذا الصراع، الذي يمثّل حدثا تاريخيا معروفا يرتبط بفترة زمنية معينة، يذهب الباحث الألماني باريت- مثلما تنقل الباحثة نبيلة ابراهيم- إلى حصرها في حدود تقريبية جاعلا من بعض العناصر التي ذكرت في النص منطلقا لذلك؛ كذكر الملك أفريدون الذي يظهر في نسخة مخطوطة مختلفة باسم لاوي الذي جعله تحريفا لاسم الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الذي صدّ هجمات المسلمين على القسطنطينية العام 718/717م، وذكر قيسارية يشير إلى الهجوم الذي قام به القائد المسلم مسلمة بن عبد الملك على قيسارية العام726/725م[18]. وبذلك نجد نصنا يستلهم المادة التاريخية، غير أن طريقة معالجة تلك المادة التاريخية والهدف منها في نص حكاية عمر النعمان تختلف عن المقصود من إدخال التاريخ في الرواية، فإذا كانت الرواية التاريخية بالخصوص تنطلق من مساءلة التاريخ بحثا عن الفترات المفصلية التي كان لها دور حاسم في التغيير الذي خلق له امتدادات حاضرة، نجد عرض الحدث التاريخي في نصنا يختلف عن ذلك، من حيث انغلاقه على ذاته بما يجعله ينأى بنفسه عن صنع صلة بالحاضر بتغييبه للفعل التاريخي المستمر، نتيجة سيطرة النزعة القومية المتعالية التي تهدف إلى تمجيد الأنا الماضي، وتصوير ذلك كله من خلال استثمار بعض الأحداث التاريخية.

2.3 بنية الصراع وتصويره:

ومن خلال القصدية الكامنة وراء إدخال التاريخ واختيار الأمكنة والأزمنة والمسميات، فيبدو أنه ليس من قبيل الصدفة أن يختار الراوي اسم عمر النعمان ملكا، فهو يشير رمزيا إلى الملك العربي المعروف عمرو بن النعمان ملك الحيرة، وتمجيد النص لسلالة عمر النعمان هو تمجيد لما تمثّله من امتداد رمزي للأسرة العربية التاريخية، ولـ"القومية" الإسلامية بشكل عام فيما بعد. وهو ما ربطه بعض الدارسين بالمنظومة الثقافية التي كانت سائدة في تلك الحقبة التاريخية و التي تسعى إلى أن "تجعل الشخصيات رموزا"[19]، وهو ما وقف عنده باختين فيما يخص الملحمة التي تعمد دوما إلى الإعلاء من شأن أمة أو قومية معينة حد التقديس أحيانا، ولا تبلغ الصورة التمجيدية، حسبه، في الملحمة تمامها إلا بدخول هذه القومية أو الأمة في صدام وصراع مع قوميات أخرى لتنتصر عليها. الأمر الذي يبدو واضحا في نص حكاية عمر النعمان، باتخاذها الصراع بين "القوميتين" المسلمة والمسيحية موضوعا لها، لتبرز من خلاله الروح الجمعية المرتبطة بالأسطورة القومية التي ترى في نفسها التميز والأحقية في الوجود والزعامة لاعتقادها الراسخ امتلاك الحقيقة المطلقة. وبهذا فإن الصراع الملحمي يختلف عن مثيله في الرواية، من حيث إن حدوده في الرواية تدور في مجملها داخل القومية الواحدة يجسّدها بشكل رئيسي الصراع الطبقي، ودوافعها هي دوافع فردية نابعة من ذوات الشخصيات من خلال بحث أغلبها عن الاستقرار بأشكاله المختلفة، وتحقيق أهدافها الشخصية.

وقد تجلى الصراع من خلال تمظهرين اثنين: صراعات جماعية دارت بين الجيوش المسلمة والجيوش المسيحية، وصراعات فردية بين ممثلين عن هذه الجيوش. ويمكن الوقوف على هذين التجليين بما يقترب من الصور المرسومة لهما في نصنا انطلاقا من وصف الجيوش والمعارك وما يسبقها من استعدادات، أو ما كان

من وصف النزالات الفردية. فتصادفنا صورة الاستعدادات بجمع الجيوش وكذا عملية التعبئة التي كان يتم فيها حث جموع المسلمين على القتال، من جهة، والتي قابلها من الجهة الأخرى أفريدون بإرساله إلى المسيحيين يستنهضهم لقتال المسلمين، حيث تتصل عملية التعبئة تلك دوما بالجانب القومي الذي يحاول التقليل من قيمة الآخر باعتقاده اكتساب الحقيقة المطلقة كما أشرنا من قبل، خاصة إذا اقترن ذلك بالمعتقد الديني الذي يمثل أهم مرتكزات الأسطورة القومية التي تجعل من دينها هو الدين الصحيح وما سواه فهو كله ضلال، ويبرز ذلك من خلال الطريقة التي يسعى كل طرف بها إلى جمع الرجال وحثهم على القتال. وإذا انتقلنا إلى طريقة وصف تلك الجيوش نجد وصفها أقرب إلى الأسطوري، حتى إذا ما احتدم القتال بين الجيشين وصف اصطدامها بالرهيب. وإذا كان ذاك وصف المعركة، فإن نتيجتها التي كانت لجيش المسلمين، مهما كان عدده أو قوة عدوه[20]، في الأخير تعكس سيطرة الفكرة القومية في النص.

وأوجد تضخيم الأنا وتسفيه الآخر- الذي ظهر بشكل واضح في تلك النزاعات الجماعية- حضورا له في صور الصراع الفردي المتعددة، انطلاقا من ارتباط البطلين المتقاتلين بالفكرة القومية المطلقة، التي تنزع عن العدو كل صفات الكمال الخُلقية والعقدية في مقابل إثباتها لدى بطل القومية، واعتبار صراعهما امتدادا للصراع العام الكبير الذي يدور بين القوميتين المتناحرتين، ابتداء من وصف الأبطال وصور احتدام الصراع وصولا إلى الانتصار الذي هو دائما من نصيب البطل القومي. فنجد ان الراوي يلجأ إلى "التضخيم والتكرار لتثبيت هذه الصورة في الأذهان وإثارة الحماس بل التعصب الديني عن طريقها"[21]، فنجد شركان في نص حكاية عمر النعمان يوصف بأنه أسد الله، في حين يظهر خصمه لوقا بن شملوط يوصف بـ"اللعين.. محرّف الإنجيل"[22]. غير أن هذا الوصف العقدي المشوّه يختفي تماما عند التعرّض للأوصاف الجسمانية للعدو أو لقدراته القتالية، وذلك مرتبط كما أشرنا سابقا بعنصر البطولة المطلقة عند البطل القومي التي تستوجب أن يكون عدوه يضاهيه في الجانب البطولي الحسي، فتبدو "هذه الشخصيات المتطابقة وكأنها نسخ خرجت من القالب نفسه"[23]، لذا جاء وصف لوقا بن شملوط "ما في بلاد الروم أعظم منه، ولا أرمى بالنبال، ولا أضرب بالسيف، ولا أطعن بالرمح والنزال"[24].

وانتصار البطل القومي هو حتمية ألزمتها سيطرة الفكرة القومية على الأبطال، كون انهزام الأبطال هو انهزام للقومية التي ينتمون إليها، وهذه الصورة غير مقبولة في الملاحم، وهذا ما نجده في نص حكاية عمر التعمان التي ينتصر فيها الأبطال المسلمون في كل مواجهاتهم الفردية مع أعدائهم المسيحيين كانتصار شركان على لوقا أو أخيه ضوء المكان على أفريدون. وتتجلى حدود الصوت الرافض لأي معارضة في ملمح يرتبط بغلبة الصوت القومي، الذي يقترن بالأحادية الفكرية لتجعل صوت الأنا ومن يمثله الصوت الوحيد المسموع في النص، فنبرة الاستصغار التي واكبت وصف الشخصيات المسيحية تعبّر عن ذلك بحملها لفكرة ايديولوجية دينية بالأساس، تجعل الأنا هو الممتلك للحقيقة المطلقة، والتي تتشخّص من خلال لغات الأبطال أثناء لقاءاتهم الحربية، كحديث "ضوء المكان" مع شركان بعد انتصاره على لوقا. وبعد رصد هذه النهايات المتشابهة لتجليات الصراع القومي في نص حكاية عمر النعمان نجد الخاتمة النهائية لذلك الصراع جاءت فيما يشبه

التعايش بين القوميتين المتناحرتين، إلا أن ذلك التعايش جاء مبطّنا بانتصار للقومية المسلمة، باعتبار دخول العالم المسيحي في حوزة ملك مسلم من سلالة الملك عمر النعمان هو الملك رومزان.

خاتمة:

على ضوء ما تقدم من محاولة إسقاط، سعينا ألا نتعسف فيها بإرغام النص على الخضوع للمقولات التجنيسية، نخلص إلى جملة من النتائج التالية:

- بناء شخصيات النص يشبه إلى حد بعيد طريقة بناء الشخصية الملحمية، حيث ظهرت كشخصيات تتميز بالبطولة المطلقة، وجدت في ماض مكتمل هو ماضي الأجداد باعتبار الحكاية منتهية زمنيا، وجعلها الارتباط القومي تتصف بكل الصفات المثالية مبتعدة عن كل ما يمكن أن يشوبها بنقص سواء في ذواتها أو أفعالها، ولو اقتضى الأمر تسهيل الأمور لها لتظهر منسجمة مع واقعها، غير أن ذلك لم يمنع من ظهور بعض الشخصيات الإشكالية التي لم تحز ذلك الكمال المطلق لتظهر أقرب إلى الشخصيات الروائية، التي اصطدمت بالعالم الذي وجدت فيه، وحملت صفتي القوة والضعف في آن واحد.

- الحدث في النص تميّز بجملة من الخصائص، تتعلق أساسا بوحدة الموضوع، من خلال التركيز على تتبع سلالة معينة، ورصد صراعها بما يحمله من خلفية تاريخية نابعة من فكرة قومية تحطّ من الآخر في سبيل تمجيد الذات. وهذه الملامح في مجملها تنأى بنفسها عن الرؤية الروائية، وإن لامست بعض جوانبها فيما يتعلّق باستثمار التاريخ كمادة تخييلية، لتجعل بناء الحدث في نص حكاية عمر النعمان يقترب من البناء الملحمي في شكله العام.

- لغة النص بتغييبها لسمة التعدد الصوتي تبتعد عن أن تصنع له تمظهرا نوعيا روائيا، لسيطرة الصوت الواحد، الذي هو صوت الراوي، الذي تشخّص لغته ايديولوجية واحدة وحيدة، تعتقد اكتساب الحقيقة المطلقة، ترتبط هذه الايديولوجية بالفكرة القومية والماضي البطولي.

وبعد هذه الدراسة التي حاولنا فيها استقصاء حدود التشكل الأجناسي في النص، نقف من جديد أمام نص حكاية عمر النعمان وولديه شركان و"ضوء المكان" نسائل جنسه الحكائي على ضوء ما توصّلنا إليه من استنتاجات سابقة، ليظهر لنا هذه المرة أكثر بوحا ببعض الملامح النوعية التي تقترب به إلى جنس الملحمة، غير أنه لا يمكن التسليم بذلك في المطلق، على اعتبار أن الأجناس الأدبية تتعلق دوما بتراكمات تاريخية معينة تستمد كينونتها من معطيات ثقافية واجتماعية وحضارية متعددة وخاصة.

قائمة المراجع:

1. ألف ليلة و ليلة: حكاية " الملك النعمان وولديه شركان وضوء المكان"، تقديم عفيف نايف حاطوم، دار صادر للطباعة والنشر، ط2، بيروت، لبنان، 2008.
2. جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، مصر، 2005.
3. جورج لوكاتش، الرواية كملحمة برجوازية، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط1، بيروت، لبنان، 1979.

4. ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الأمان، ط1، الرباط، المغرب، 1986.
5. ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، تر: جمال شحيد، معهد الإنماء العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1982.
6. فتيحة عبد الله، إشكالية تصنيف الأجناس الأدبية في النقد الأدبي، علامات في النقد، مجلد14، عدد55، مارس2005.
7. نبيلة ابراهيم، سيرة الأميرة ذات الهمة- دراسة مقارنة-، المكتبة الأكاديمية، ط5، القاهرة، مصر. د ت
هيام أبو الحسين، ملحمة في قالب حكاية، مجلة عالم الفكر، مجلد 17، عدد1، أبريل- مايو- يونيو 1986.

[1] - فتيحة عبد الله، إشكالية تصنيف الأجناس الأدبية في النقد الأدبي، علامات في النقد، مجلد14، عدد55، مارس2005،ص 351.

[2] - ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، تر: جمال شحيد، معهد الإنماء العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1982، ص32.

[3] - نفسه، ص29.

[4] - جورج لوكاتش، الرواية كملحمة برجوازية، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط1، بيروت، لبنان، 1979، ص28.

[5] - جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، مصر، 2005، ص24.

[6] - ألف ليلة و ليلة: حكاية " الملك النعمان وولديه شركان وضوء المكان"، تقديم عفيف نايف حاطوم، دار صادر للطباعة والنشر، ط2، بيروت، لبنان، 2008، ص162.

[7] - نفسه، ص162.

[8] - جورج لوكاتش، الرواية كملحمة برجوازية، مرجع سابق، ص37.

[9] - ألف ليلة وليلة، ص 242.

[10] - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الأمان، ط1، الرباط، المغرب، 1986، ص116.

[11] - ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، ص59.

[12] - ألف ليلة و ليلة، ص252.

[13] - هيام أبو الحسين، ملحمة في قالب حكاية، مجلة عالم الفكر، مجلد 17، عدد1، أبريل- مايو- يونيو 1986، وزارة الإعلام، الكويت، ص87.

[14] - ألف ليلة وليلة، ص235.

[15] - ألف ليلة وليلة، ص243.

[16] - هيام أبو الحسين، مرجع سابق، ص84.

[17] - ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص116.

[18] - نبيلة ابراهيم، سيرة الأميرة ذات الهمة-دراسة مقارنة-، المكتبة الأكاديمية، ط5، القاهرة، مصر ، ص142-143.

[19] - هيام أبو الحسين، مرجع سابق، ص87.

[20] - ألف ليلة وليلة، ص237.

[21] - هيام أبو الحسين، مرجع سابق، ص87.

[22] - ألف ليلة وليلة، ص232.

[23] - هيام أبو الحسين، مرجع سابق، ص87.

[24] - ألف ليلة وليلة، ص231.